بسم الله الرحمن الرحيم

** ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * وما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون * فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون .**

يخبر تعالى عن استبعاد الكفرة لقيام الساعة في قولهم : متى هذا الوعد ، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، قال الله تعالى : ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون أي ما ينتظرون إلا صيحة واحدة ، وهذه والله أعلم نفخة الفزع ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة يطولها ويمدها فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتا ورفع ليتا وهي صفحة العنق يتسمع الصوت من قبل السماء ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر القيامة بالنار تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : فلا يستطيعون توصية أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ولا إلى أهلهم يرجعون وقد وردت هاهنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ثم تكون بعد هذا نفخة الصعق التي تموت فيها الأحياء كلهم ماعدا الحي القيوم ثم بعد ذلك نفخة البعث .

الشرح :

الحمد لله رب العالمين ، وبعد :

قوله جل وعلا : **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** المراد بهذا الوعد

....

الوعد بقيام الناس بعد مماتهم إلى ميعاد آخر ، متى هذا الوعد : يعني متى تقوم الساعة ، يعني متى الساعة ؟ كما قال جل وعلا في سورة الأعراف : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله** ﴾ ، والوعد هذا أرادوا به ما وعدت الأنبياء به ، وما وعد الرسول عليه الصلاة والسلام أولئك الذين كذبوه به ، وهو وعد يوم يجازون فيه ويعذبون فيه على تكذيبهم بالرسل .

قال جل وعلا هنا : ﴿ **متى هذا الوعد إن كنتم صادقين** ﴾ يعني إن كنتم صادقين في مقالتكم فأخبرونا عن متى تكون القيامة ، والصدق هو مطابقة الكلام للواقع . إذا أخبر مخبر بشيء وكان في الواقع بمثل ما أخبر سمي صادقاً ، وإذا كان في الواقع بغير ما أخبر سمي كاذباً ، سواء كان متعمداً أو كان مخطئاً في الوصف .

لهذا قال ابن السحنة في منظومته في البلاغة ، يقول :

والصدق أن يطابق الواقع ما تقوله والكذب إن ذا يعدم

الصدق أن يطابق الواقع ما تقوله ، هذا الصدق ، ما الكذب ؟ إذا عدم ذلك ، إذا خالف ما تقوله الواقع سميت كاذباً سواء كان ذلك عن خطأ أو عن تعمد .

قوله هنا : ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ يعني إن كنتم تخبرونا بما سيكون في الواقع ، إن كنتم تخبرون بصدق وأن خبركم يوافق ما سيكون في الواقع فمتى سيكون هذا الوعد ؟ الله جل وعلا ما أجابهم على سؤالهم ؛ ذلك لأنه سؤال استكبار واستبعاد ، وقد جاء مثل هذا السؤال في آيات كثيرة ، كقوله جل وعلا : ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم** ﴾ ونحو ذلك من الآيات .

قال جل وعلا هنا : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ ، ما

....

ينظرون إلا صيحة : (ما) و (إلا) هذه تفيد الحصر والقصر ، فهي من أدوات إفادة الحصر والقصر . ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة** ﴾ وصيحة : هذا مفعول به لينظرون ، يعني ينظرون صيحة

واحدة ، وينظرون : بمعنى ينتظرون ، ما ينظرون : يعني ما ينتظرون .
النظر في القرآن تارة لا يُعدى بحرف ولا يُعدى إلى شيء ، وتارة يُعدى . فإذا لم يُعدى يحتمل الانتظار ويحتمل نظر البصر . هنا قال : ﴿ **هل ينظرون** ﴾ المعنى هل ينتظرون ، لأنه هو الذي يناسب السياق . قال جل وعلا : ﴿ **ثم نظر ثم عبس وبسر** ﴾ نظر : يعني نظر رؤية . أما إذا عُدي بحرف جر فلا يحمل معنى الانتظار ، وهذا أصل عند أهل السنة والجماعة ، هذا التقسيم في الرد على كلام المعتزلة في مسألة الرؤية في قوله تعالى: ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ يفسرها المعتزلة والخوارج ومن شابههم ، من نفاة الرؤيا ، بأن معنى ناظرة من الانتظار ويستدلون بهذه الآية ونحوها من الآيات . قالوا معنى ناظرة أي منتظرة ، كما قال : ﴿ **هل ينظرون إلا صيحة** ﴾ يعني هل ينتظرون إلا صيحة .
والجواب : أن هذا غلط على اللغة وعلى ما عُرف من ذكر هذا اللفظ في القرآن ، فإن النظر إذا عُدي بحرف الجر كان معناه نظر الرؤية لا نظر الانتظار . قال جل وعلا : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ ناظرة إلى ربها ، فهذا معناه النظر الذي هو الرؤية ، وأيضاً قواه في هذا الموضع ذكر موضع النظر والرؤية ألا وهو الوجه ؛ لأن فيه العينين .
وأحياناً يُعدى بدون حرف جر كما في قوله : ﴿ **قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون** ﴾ قل انظروا ماذا : هذا نظر رؤية ، انظر السماء : نظر إبصار رؤية ليس نظر انتظار .
إذاً هنا قوله : ﴿ **هل ينظرون** ﴾ بمعنى هل ينتظرون ﴿ **إلا صيحة واحدة** ﴾ الصيحة

....

: صوت عظيم بسبب النفخ ، نفخ إسرافيل عليه السلام في الصور ، ويأمره جل وعلا أن ينفخ .
قال هنا : ﴿ **تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ يخصمون : أصلها يختصمون . فهم في أسواقهم ـ كما ذكر الحافظ ابن كثير هنا في التفسير ـ وهم في معايشهم يتقلبون ويختصمون ويترادون الكلام ، فتأتي الصيحة فتأخذهم وهم على تلك الحال . ﴿ **هل ينظرون**

إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون يعني : والحال أنهم يختصمون ، لأن قوله : **وهم يخصمون** هذه جملة حالية ، فالواو واو الحال .
ذكر الحافظ هنا أن هذه النفخة ـ والله أعلم ـ هي النفخة الأولى وهي نفخة الفزع ، ولابد من بيان هذا الكلام الذي ذكره الحافظ ، وبيان ذلك بأن نقول : النفخات التي ذُكرت في القرآن ، التي تُنفخ في الصور هي ثلاث نفخات ، ذُكر في القرآن ثلاث : **الأولى** ـ ليس يعني بالترتيب لكن نذكر ـ يعني نفخة منها ذُكرت في سورة النمل ، في قوله جل وعلا : **ويوم يُنفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله وكلٌ أتوه داخرين** . وهي صيحة التنادي أيضاً التي ذُكرت في سورة غافر ، في قوله تعالى مخبراً عن قول مؤمن آل فرعون : **ويا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد** يوم التناد : يعني يوم تسمعون النداء الأعظم . هل هي نفخة الصعق ؟ قالوا لا ، هذه نفخة فزع ، وذلك لقوله بعدها : **يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم** ونفخة الصعق هي نفخة موت ليس فيها إدبار ، ونفخة البعث هذه نفخة يُقبل فيها الناس ولا يدبرون .
والنفخة **الثانية** التي ذُكرت في القرآن ، هي نفخة الصعق في قوله تعالى : **ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله** هذه نفخة الصعق . ثم نفخة **ثالثة** وهي نفخة البعث والقيام الأعظم ، النفخة التي تطير بها الأرواح من الصور إلى الأجساد ، قال جل وعلا : **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم**

....

قيام ينظرون .
العلماء مختلفون ، هل النفخات في الصور ثلاث أم النفخات ثنتان ؟ كثير من أهل العلم من المحققين يقولن : هي ثلاث نفخات ، بما دل عليه ظاهر القرآن ـ كما ذكرت لكم ـ النفخة الأولى نفخة الفزع ، وهي التي ذكر الحافظ ابن كثير أن المراد بتفسير هذه الآية ، قال : **تأخذهم وهم يخصمون** وبعد النفخة هذه تخرج النار التي تحشر الناس إلى أرض محشرهم . وهذه النفخة هي النفخة الأولى ، دل عليها من السنة حديث الصور الطويل ،

المعروف عن أبي هريرة ، وهذا الحديث يستدل به الحافظ ابن كثير في التفسير وكذلك في كتابه (النهاية) ولكن الحديث وإن احتج به عدد من العلماء لكنه حديث ضعيف ، بل ضعيف جداً ؛ لأن في إسناده مجاهيل ومن لا يُحتج به بمرة . لكن ظاهر القرآن يدل على ما ذكروا من النفخات الثلاث ، ورأوا أن دلالة حديث الصور لا تخالف ما دل عليه القرآن . هذه النفخة هي الأولى قال الآخرون : النفخات ثنتان : نفخة الصعق وبعدها نفخة البعث ، ولكن نفخة الصعق ليست كنفخة البعث ، نفخة الصعق طويلة ، نفخة يطول وقتها فأولها فزع وآخرها صعق ـ والحافظ ابن كثير أشار إلى أنها طويلة كما سمعتم ـ قالوا : والنفخة الثانية هي نفخة البعث .
والظاهر ـ والله أعلم ـ أن النفخات ثلاث ، وذلك لأن ـ كما ذكر الحافظ ابن كثير ـ لأن النار تخرج فتحشر الناس إلى محشرهم ، وإذا حشرتهم إلى محشرهم فليس ثم اختصام فيما بينهم ، وليس ثم بيع ولا شراء ، فقد عاينوا النار وهم يهربون منها
، وعلى كلٍ فالخلاف في هذه المسألة ليس وراءه محصل ؛ لأن من قال : إن النفخات ثنتان ، فيقول من نفخة الصعق فزع . فلا ينفي دلالة القرآن في قوله :
 ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض .

....

 تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية يعني فلا يستطيعون أن يوصوا في أموالهم أو أن يوصوا أولادهم أو يوصوا فيما يريدون الوصية فيه **ولا إلى أهلهم يرجعون** ولا رجوع لهم بعد ذلك ، بل كلٌ شأنه نفسه لأن الأمر عظيم ، كما قال هنا في الحديث ((فلا يسمعها أحد إلا أصغى ليتاً)) يسمع بأذنه ، والليت هذا هو صفحة العنق ((ورفع ليتاً)) ثم يعكس ، يصغي الآخر ويرفع الأخر من شدة الفزع يرى ما الذي حصل .
طبعاً بين النفخة الثانية والنفخة الثالثة ، يعني بين نفخة الصعق ونفخة البعث ، بينهما أربعون ، كما جاء في حديث أبي هريرة في الصحيح ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((بين النفختين أربعون)) قالوا لأبي هريرة : أربعون يوماً ؟ قال : أبيت ، يعني أبيت أن أتكلم فيما ليس لي فيه علم . قالوا : أربعون شهراً ؟ قال : أبيت . قال أبو هريرة تكملة للحديث : ((وكل شيء يبلى

من ابن آدم إلا عقب الذنب ، ومنه يُركب الخلق يوم القيامة)) .
يعني الإنسان إذا دُفن أو كان في أي مكان في بر ، في بحر ، كل شيء يبلى منه إلا ما يجتمع فيه خلقه وصفاته ، وهو آخر جزء من فقار الظهر ((إلا عقب الذنب)) قطعة صغيرة جداً جعل الله جل وعلا فيها تركيب ابن آدم ، تبقى في الأرض كالبذور للنبات فإذا نفخ في الصور نفخة الصعق ومات من على الأرض ، أرسل الله جل وعلا السماء بسحاب خاص يحمل ماءً كمني الرجال ، فيأمره الله جل وعلا أن يُمطر على الأرض أربعين ، فيمطر ذلك السحاب أربعين فتنبت منه الأجسام ، تنبت مثل النبات لا روح فيها ، وتتشقق الأرض بما فيها ؛ لأنهم تضخموا ، كانوا أجزاء صغيرة ثم بعد ذلك تشققت ﴿ **إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها** ﴾ يعني من في جوفها .
ثم بعد ذلك إذا اكتملوا نُفخ ، اكتمل خلقهم واكتمل ما هم فيه على سن ثلاث وثلاثين سنة ، بعد ذلك يُنفخ في الصور نفخة البعث ، فترجع الأرواح إلى الأجساد فيهتزون

....

﴿ **فإذا هم قيام ينظرون** ﴾ ينظرون لأن الأرض تغيرت عليهم والسماء تغيرت ، ولا نور بعد ذلك ، تشرق الأرض بنور ربها .
يقول ابن القيم رحمه الله في بيان ما بين النفختين من الأحوال ، في (النونية) ، يعني ما بين النفخة الثانية والثالثة ، ما بين نفخة الصعق ونفخة البعث ، يقول رحمه الله : وإذا أراد الله ـ في أبيات جميلة لطيفة في هذا المعنى ـ قال :

وإذا أراد الله إخراج الـورى بعد الممات إلى المعاد الثاني
ألقى على الأرض التي هـم تحتها والله مقتدر وذو سلطان
مطراً غليظاً أبيضـاً متتابعـاً عشراً وعشراً بعدها عشـران
فتظل تنبت منه أجسام الورى مثل النبات كأجمل الريحـان
حتى إذا ما الأم حان ولادها وتمخضت فنفاسهـا متـدان

يعني شبهها بالحامل ، الحامل وصل بها الطلق ووصلها النفاس ، قال :
حتى إذا ما الأم ـ يعني الأرض ـ
حتى إذا ما الأم حان ولادها وتمخضت فنفاسهـا متـدان

أوحى لها رب السما فتشققت فإذا الجنيـن كأكمل الشبـان

في سن ثلاث وثلاثين ، هذا بين النفختين ، نسأل الله جل وعلا أن يؤمننا يوم الفزع الأكبر ، وأن يختم لنا أيامنا بخير ختام .

هذا وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد .